مهنتي عالمي في عالم المهنة الصغير لا نحتاج كي ننجح أكثر من الإرادة

كفاية سلوادي

جلست في مكتبة المدرسة بعد حصة ممتعة أحببت من خلالها مهنة التدريس، وأيقنت أنها المهنة التي تخلق الناس، تساعدهم في التكون، وتجعل منهم علماء وأدباء وحرفيين، والأهم من هذا كله، أنها تساعدهم على أن يكونوا أناساً مبدعين.

فبعد كرهي الشديد لهذه المهنة منذ الصغر، أصبحت أشعر أنها عالمي الصغير الذي أرسم أحداثه كما أشاء وكما حلمت دوماً، فأجدني وقد تحول كرهي إلى حب، وألمي إلى أمل، وفشلي إلى نجاح. و لم يكن ذلك بالشيء الصعب، بل كان من خلال أمور بسيطة، نجاح من خلال الحب، ونجاح آخر من خلال الابتسامة، عندها اكتشفت أننا لا نحتاج لأشياء كثيرة كي ننجح، فما نحتاج هو أن نقتنع ونريد ونحاول.

وتذكرت كل ما مر بي في هذه اللحظة التي أجلس فيها مطمئنة راضية، وأشعر أن نظرتي للعالم ككل قد تغيرت ... .

فقد عانيت كثيراً في صغري من نظام التدريس السائد في تلك الفترة، فعندما كنت في المرحلة الابتدائية، نقلت معلمة اللغة العربية التي أحبها ... وجاءتنا معلمة جديدة، وفي أول حصة لها، قالت: سأسال كل طالبة سؤالاً، من تجب عنه تبقى في الصف، ومن لم تجب تخرج لا أريدها هنا. وفعلاً، كان ذلك كلعبة حظ ممزوجة بالخوف والألم والآمل، شعرت وقتها أن مصيري سيحدده سؤال ربما أجب عنه وربما لا. كان خوفي كبيراً في تلك اللحظة على الرغم من اجتهادي وهدوئي، ولكن الحظ خالفني بالسؤال و لم أجب عنه، وفعلاً خرجت من الصف وطلبت المعلمة إحضار ولي أمري ... بقولها أنت غير مجتهدة! وقتها شعرت بظلم ... حكم علي من خلال سؤال واحد فقط ... كانت رهبة الأهل في ذلك الوقت كبيرة ... لدرجة أنني لم أجرؤ أن أخبر والديّ بضرورة حضور أحدهما إلى المدرسة ... لأن المعلمة كانت عندهم بمثابة قديسة لا تخطئ، وكأن كلامها منزل ... !

ولكن الحظ أكمل لعبته معي عندما تعرف والداي بالصدفة على هذه المعلمة في المواصلات، قالت لهما إنها معلمة اللغة العربية في المدرسة، فسألها والدي بكل فخر هل تدرسين ابنتي لعلمه أنني طالبة مجتهدة وهادئة. وعندما سألته عن اسمي، قالت له: نعم، ولكنها غير مجتهدة وطلبت إحضار أحدكما، لكنها –على ما يبدو– لم تخبركما. وقع هذا الخبر على والديّ كالصاعقة، وأخذا كلامها على أنه مسلم به، لم يستمعا لدفاعي عن نفسي، فالمعلمة لا تقول إلا الصواب،

وبخاني، وحرماني من بعض الأمور التي أحبها لفترة ... بدافع الحب والحرص على دراستي الممزوج بالقسوة. وقتها كرهت هذه المهنة، وأي كره ... وعزمت أن أتعلم، وأن أصبح أي شيء إلا معلمة ... .

واصلت تعليمي في المرحلة الثانوية بإصرار على الرغم من كل المعيقات، فقد قل عدد الطالبات عندما وصلنا إلى الصف الأول الثانوي، ورفضت الوزارة فتح شعبة لنا ... كان أمامنا ثلاثة خيارات، إما ندرس في مدرسة الذكور، وإما نذهب إلى بلدة أخرى للدراسة، وإما نجلس ولا نواصل الدراسة ... وطبعاً لم يكن لي الحق في الاختيار، فقد جلس والداي وإخوتي وقرروا أن أواصل دراستي في مدرسة البلدة في مدرسة الذكور ... وفعلاً أنهيت دراستي الثانوية بنجاح ... وحان الوقت للتسجيل في الجامعة ... كانت رغبتي أن أدرس إما المحاماة وإما الصحافة التي لطالما حلمت بها منذ صغري ... لأكتب بقلم حر لا يخاف أي شيء ... يعبر عما لم أستطع التعبير عنه طوال حياتي. ولكن الصدمة والمأساة، بالنسبة لي، كانت عندما رفض والدي ما أحببت، وقال لا خيار أمامك إلا أن تكوني معلمة، اختاري التخصص على هذا الأساس ... . انهارت كل أحلامي وآمالي أمام هذا الكلام ... إنني أكره هذه المهنة كثيراً، لم أرغب فيها يوماً، ولم أحبها يوماً ... ولكنني رضخت للأمر الواقع، ووافقت والدي ودرست اللغة العربية بعد أن أقنعت نفسي أنها ضرورية للصحافة ... ربما يوماً ما أستطيع دراسة ما أحببت ... وتناسيت أن سبب كرهي لأن أكون معلمة هي معلمة اللغة العربية ... درست اللغة العربية وتفوقت فيها ... تخرجت من الجامعة ... وأتى دور التوظيف ... توظفت في روضة للأطفال ... كانت الروضة جميلة ... مفروشة بالسجاد ومليئة بالألعاب ... أعجبت بها وقلت ربما تتغير نظرتي لهذه المهنة ... ولكن الواقع كان أسوأ مما توقعت ... فقد دخلت مديرة الروضة إلى صفي والأطفال في غرفة الألعاب وجدتهم يلعبون بكل الألعاب ويضحكون، وبعضهم مستلق على السجاد وهو يلعب ... أردت وقتها أن أعطيهم مساحة من حرية لطالما حلمت بها ... ولكن المديرة جن جنونها عندما رأت هذا المنظر، وبدأت تصرخ: لماذا كل هذه الألعاب؟ ... لماذا هذا الطالب مستلق؟ .... لماذا تدعيهم على حريتهم؟ ... ازدادت نظرتي التشاؤمية لهذه المهنة، وقررت ترك الروضة وفعلاً تركتها ... حاولت مراراً إقناع والدي بأنني لن أكون معلمة ناجحة (أنا فاشلة في التدريس) هكذا قلت أريد أن

أدرس من جديد الصحافة أو المحاماة ... كان الرد لا –إذن اجلسي في البيت ... بقيت سنة كاملة أرفض تقديم الطلبات لأي مدرسة ... بعد سنة أتتني فرصة للتوظيف في مدرسة خاصة. في البداية رفضت، ولكن صديقة لي أقنعتني أن مدير المدرسة رجل طيب ومتفهم ... وطلابها مجتهدون ... وفعلاً قابلت المدير ووجدته كما قيل عنه ... تشجعت للتدريس ... عرفني على الهيئة التدريسية، ودخل معي أحد الصفوف، وعرفني على الطلاب والطالبات ... كانت بداية تغير توجهاتي لهذه المهنة من هنا ... فقد أحببت الطالبات والطلاب ... ولأني أحبهم بدأت أدرسهم بشغف ... بدأوا يحبونني ويتفوقون معي.

ولكن الأسلوب التقليدي والعقاب بالضرب والعنف كان المظهر الأبرز في هذه المدرسة ... تعاملت مع طلابي وطالباتي بطريقة مغايرة، فلا أرسل أيَّ أحد منهم للعقاب إلى الإدارة، وإن اخطأ أناقشه بسبب تصرفه، فيعتذر ولا يكرر ذلك لاقتناعه بأنة أخطأ ... حصدت نجاحاً كبيراً في عملي، كان هذا النجاح بسبب حب الطلاب لي وحبي لهم ... حاولت طبعاً، ولكن لم أستطع التغيير في المدرسة، كان التغيير بسيطاً وعلى مستوى شخصي بحصتي فقط ... ما عدا ذلك نظام المدرسة كما هو لم يتغير ... وبعد سنوات عدة في التدريس في هذه المدرسة ... وتحولي من معلمة فاشلة حسب ما كنت

أظن إلى معلمة ناجحة ... أتتني فرصة توظيف في الحكومة، وفعلاً انتقلت إلى مدارس الحكومة.

ما زلت أتذكر ذلك اليوم الأول لي في المدرسة ... عندما دخلت لمقابلة المديرة، وأخبرتني أنني سأدرس الصف السابع، وعندما نظرت إليّ قالت تبدين صغيرة وهادئة ... وطالبات الصف السابع شرسات ومتوحشات وربما يأكلنك، انتبهي!! لم أهتم لكلامها أبداً، لأنني تعلمت أنه بالحب قد يتغير أي شيء، وفعلاً دخلت الصف السابع ونظرت للطالبات وابتسمت بوجوههن، وتعرفت عليهن، وبعد حصص عدة، وجدت الطالبات يقلن نحن نحبك كثيراً، أنت دائماً تبتسمين في وجوهنا ولا تصرخين ... وفعلاً بدأت أدرسهن بكل حب وإخلاص على الرغم من ضعفهن الكبير في القراءة والكتابة ... بدأن يتحسنّ بعد جهد كبير محبب إلى نفسي، فعندما لاحظت هذا الضعف الكبير ذهبت إلى مديرة المدرسة، وقلت لها إنني أريد أن أعالج ضعف الطالبات في القراءة والكتابة، ولكنني سأتأخر في المنهج، ومما أثلج صدري تقبل المديرة مساعدتي، فقد قالت افعلي ما تريدين ولا تقلقي بشأن المنهج. وفعلاً وضعت خطة لمعالجة هذا الضعف، وبدأت أسير عليها.

كانت خطتي تدور حول محاور عدة، وكان أهمها النصوص الخارجية، فقد عدت إلى كتب قصص العرب واخترت بعض النصوص الجميلة والمشوقة والمحببة إلى نفوس الطالبات، وفي الوقت نفسه تحمل قيماً وعبراً قيمة. قمت بتصوير النصوص وتوزيعها على الطالبات، وبدأنا نقرأ النص ونتعرف على شخصياته. كان تفاعل الطالبات كبيراً مع هذه النصوص، ربما لأنهن شعرن بالتحرر من قيود المنهج، أو ربما لأن النص مشوق ومحبب لنفوسهن، فأبدعن في المناقشة والتحليل وطرح الحلول والقراءة المعبرة، وأحياناً كتابة جزء من هذه النصوص غيباً ... . أما المحور الآخر الذي لا يقل قيمة عن المحور السابق، فهو التعامل بحب ولطف مع الطالبات، والاستماع إليهن، وتقبل آرائهن وإجاباتهن مهما كانت، وإعطاؤهن مساحة من الوقت والحرية للتعبير عن كل أفكارهن ومشاعرهن. ظهر تحسن واضح على الطالبات؛ سواء أكان ذلك بسلوكهن أم نتائجهن المدرسية، إضافة إلى خطوطهن، فقد كان خطي جميلاً، فأصبحن يقلدنه ... لأنهن يحببني وأنا أحبهن ... وكان هذا التحول واضحاً لجميع المدرسة ... فالجميع انتبه أن خط طالبات الصف السابع مشابه لخط معلمة اللغة العربية تماماً.

وكذلك الحال مع التعبير، بدأت القصة مبكراً، حيث قبل سنوات عدة، عندما دخلت لإعطاء حصة تعبير للصف العاشر، وكانت الحصة الأولى في التعبير لهذا الصف، وقتها قلت للطالبات سنأخذ اليوم موضوع تعبير، وكانت المفاجأة عندما أبدت طالبات الصف العاشر جميعهن الاستياء وعدم الرغبة في كتابة التعبير، فقالت إحداهن: ممل. وقالت ثانية: أنا لا أجيد كتابة التعبير، وثالثة: أنا أكره حصة التعبير ... ورابعة قالت: رداً على سؤالي (لماذا؟)، لأن المعلمة في هذه الحصة عادة تطلب منا أن نخرج دفتر التعبير ونكتب موضوعاً عن الوطن أو فصل الربيع ... وغالباً نحن لا نتقن الكتابة.

قررت وقتها ومنذ تلك اللحظة أن أجعل من حصة التعبير حصة محببة إلى قلوب الطالبات، فمقت بالبحث في كتب عدة عن أساليب تدريس التعبير المختلفة، وتزامن بحثي هذا مع قيام مركز القطان للبحث والتطوير التربوي بإعطاء دورات بما يسمى: التاريخ النص (الصورة والرواية الأخرى) أخبرتني بها صديقة. وفعلاً ذهبت إلى المركز وسجلت في هذه الدورة التي استمرت 20 ساعة نظرية وتطبيقية، وكانت بمثابة نقطة التحول الرئيسية في أسلوبي في إعطاء (التعبير)، فقد كنا من خلال هذه الدورة نأخذ نصاً معيناً أو صورة، ونقوم بتمثيلها بعد تقسيم الأدوار أو المجموعات، ونعبر عن أحداثها شفوياً، وبعد الانتهاء نقوم بكتابة موضوع تعبير حولها، وأثناء أخذي لهذه الدورة وبعدها كنت أقوم بتطبيق كل ما أتعلمه على الطالبات، وأحياناً بالنصوص والصور نفسها التي تم التطبيق عليها أثناء تدريبنا، وكانت النتيجة رائعة، فأصبحت حصة التعبير عند الطالبات حصة محببة إليهن جداً، فاليوم الذي أعطي فيه حصة التعبير، أجد الطالبات ينتظرنني على باب غرفة الصف بلهفة متسائلات: ماذا سنأخذ اليوم في حصة التعبير؟ وفي اليوم التالي من الحصة أجدهن ينتظرنني ويسألن: هل قرأت موضوعي؟ هل هو جميل؟ .... متى سنأخذ حصة التعبير القادمة؟ فكل حصة كانت تحمل شيئاً جديداً ومختلفاً عن الحصة السابقة.

سررت جداً بهذا التحول عند الطالبات، حيث أصبحت حصة التعبير حصة محببة إلى نفوس الطالبات، يبدعن فيها، يعبرن عن أفكارهن وأحاسيسهن بطريقة جميلة ومعبرة، إضافة إلى اكتسابهن قوة الشخصية والطلاقة في التعبير الشفوي أثناء التمثيل قبل القيام بالتعبير الكتابي.

بدأت أحب هذه المهنة كثيراً وتغيرت نظرتي لها ... أحببت

أن أطور من نفسي وأتعلم كل ما هو حديث من أساليب تجذب الطلاب نحو التعلم ونحو المدرسة ... وتحول المدرسة من مكان غير مرغوب فيه إلى مكان يحبه الطلاب ويرغبون في التواجد فيه طويلاً ... أحببت أن أعطي الطالب مساحة من حرية يعبر فيها عن آرائه وأحلامه واختياراته ... وفعلا وجدت ما أردت من خلال اطلاعي ... ومن خلال التحاقي بمركز القطان بمساق قبل سنوات عدة بعنوان «التاريخ النص» (الصورة والرواية الأخرى)، فقد وظفت كل ما تعلمته في المساق في التدريس، وبخاصة في مادة التعبير ... فتغيرت نظرتي أكثر فأكثر ... وعرفت أنه بإمكان المعلم أن يبدع على الرغم من أي معيقات ... بإمكانه أن يخلق جيلاً مبدعاً قادراً على تحمل المسؤولية واتخاذ القرارات المناسبة في حياته، نضجت داخلي قدرات كامنة لم أتوقع يوماً أنني أمتلكها، فقد أصبحت أدير الحصة وكأنها عالم جميل مصغر داخل غرفة الصف. تغيرت أساليبي وطرقي في التدريس، لم أعد أعطي الحصة بجمود وتلقين كما عودونا مدرسونا قديماً وحديثاً ... دخلت يوماً إلى الصف العاشر وكان درسهم وقتها شريعة الغاب، وهي مسرحية شعرية تصور حال البشر على ألسنة الحيوانات ... قلت للطالبات: ما رأيكن غداً عند شرح هذه المسرحية أن نتقمص أدوار هذه الحيوانات ... سرّت الطالبات كثيراً بهذا التغيير، وقمنا بتقسيم الأدوار فطالبة بدور الأسد، وأخرى بدور الذئب، وثالثة بدور الحمار ... ومع أن الحمار كان يمثل الشعب في هذه المسرحية، إلا أنهن رفضن القيام بدوره. وبعد حوار ونقاش قبلت إحداهن بهذا الدور ... وفعلاً في اليوم التالي دخلت الحصة فوجدتهن قد لبسن أقنعة لهذه الحيوانات، وبدأن بتمثيل الأدوار، وكل طالبة بيدها كتابها ... تتقمص دورها بإتقان وسرور والفرحة تغمرهن جميعهن ... كانت من أجمل الحصص التي أدرتها في حياتي، تمنيت وقتها لو أنني طالبة معهن ... أو أن معلمينا علّمونا بهذا الأسلوب، وقبل نهاية الحصة خلعت الطالبات الأقنعة ... وجلسن على المقاعد وأخذنا نناقش المسرحية ونحللها ونستخرج كل القيم والعبر الموجودة فيها بشغف ورغبة كبيرة من الطالبات ... شعرت في هذه الحصة أنني أعطيتهن لغة وقيماً وعبراً وحياة من خلال أسطر شعرية خرجت شخصياتها إلى الحياة على أرض الواقع. ومن ذلك اليوم وأنا أجعل من الطالبات محور العملية التعليمية، أنا أقوم فقط بإدارة الحصة، كما أصبح مبدئي وسيبقى في التدريس أن المحبة هي الأساس في التعلم، فإن استطعت أن تصل إلى قلب الطالب، يمكنك أن تصل إلى عقله وتعطيه المعلومة بشكل جميل وسلس ومحبب إلى نفسه، فالمعلم كي ينجح في عمله ليس عليه أكثر من أن يحب الطلاب ويخاف عليهم، وأن لا ينظر إليهم كأشرار، بل كأناس يحتاجون للحماية والاحتضان والحب.

مدرسة بنات عناتا